"قوة - الشيعة اللبنانيين - الثالثة"

■ أن تولد «قوة ثالثة» للشيعة اللبنانيين مكسب لهم وللبنان وللمنطقة كذلك.

ولنقل، باديءَ ذي بدء، ان الشيعة في لبنان ربما كانوا اكثر طوائفه انطواء على التعدد. يعرف هـذه الحقيقة كل من يعرف الجنوب والبقاع، وجبيل والضاحية الجنوبية أيضاً. وهي، فضلاً عن تعـدد الافكار والمواقع الاجتماعيـة، تلحّ في رفض أحادية التمثيل، أو حتـى ثنائيته الحصريّة، إلحاحها في رفض الإجماعات السياسية والايديولوجية التي تتأتّى عن اختزال التمثيل قسراً.

والشيعة هكذا كانوا قبل أن يدبّ دبيب النزاع الأهلي - الإقليمي، فتوزّعت ولاءاتهم بين زعماء كثيرين، وظل دائماً هامش، لم يكن ضيقاً، للقوى الحديثة والحزبية واليسارية وغيرها. حتى التيار الذي أسسه الإمام موسى الصدر، أوائل السبعينات، حاول، قبل أن تجرفه ريح الحرب وينجرف فيها، أن يحتوي تعدد الطائفة في داخله بحيث تلتئم، ضمن حركة شعبية واحدة، قوى واتجاهات وأشخاص لا يعوزهم الإختلاف والتنافر.

ومـا يضاعف المعنـى الحديث لـ «التعددية» التي يشـي بها «اللقاء» الأخير اشـتماله على فعاليات ثقافية ومهنية واقتصادية هي لطائفتها مثل شـبان «سـاحة الشهداء» لطوائفهم، داخلية وخارجيـة في آن معاً. وليس بلا دلالة، بالمعنـى هذا، أن تحتضن «العاملية» اللقاء المذكور، هي التي جسّدت إحدى أبكر المحاولات الشيعية لبناء مؤسسة حديثة، تعليمية ومدينية.

والحال، من جهة أخرى، أن الشـيعة اللبنانيين امتلكوا، تقليدياً، رابطة نموذجية مع الخارج. ذاك أن علاقتهم القديمة والوثيقة بالعراق، أو بإيران، كانت دائماً ثقافية وروحية، وقد تأدّت عنها صلات ومصاهرات وانتقال في مواقع الإقامة، إلا أنها لم تكن أبداً سياسـية. فلم يظهر، مطلقاً، فـي التاريخ الشـيعي اللبناني من يدعو الـى «وحدة» مع العراق، دع جانباً إيـران، تبعاً لرابطة المذهـب. بل لم يظهر ما هو أقل مـن ذلك مما يتعدى الجوانب الثقافيـة والروحية، والحضارية بالمعنـى العريض للكلمـة. وبالمعنى هذا، ترهص «القوة الثالثة» بإعادة اعتبار لتلك السـمة في تاريخ اللبنانيين الشـيعة. لكنها، بترسـيمها الخط الفاصل بين السياسـي والثقافي - الروحي، تمهد لموازنة لم تكن دائماً سهلة بين إحراز المكاسب والتمسك بالتعايش، وبين أن تكون الطائفة المعنيـة أكبر طوائف البلد وأن تكون، في الوقت نفسـه، ذات حسّ أقلي وديموقراطي تمليه، بين أمور أخرى، طبيعة الوطن وتركيبه.

وشـيعة «القـوة الثالثة» يملكون، فـي آخر المطاف، تقديم نموذج شـيعي مغاير على صعيد المنطقة. فهو ليس، بطبيعة الحال، النموذج الخميني الإيراني، ولا يزال طرياً في الذاكرة الإحباط الـذي ضرب المحاولة المبكـرة لـ«حزب الله» في إقامة «جمهورية إسـلامية» في لبنان. غير أنه ليس، أيضاً، نموذج الشيعة العراقيين ممن اضطرتهم وحشية صدّام حسين الى طلب الخلاص، أو مـا تراءى لهم كذلـك، عبر الاحتلال. وإذا أضفنا ذواء المحـاولات الحزبية والراديكالية التي منحها الشيعة بعض خيرة شبّانهم، تراءت عناصر نموذج لبناني يلعب فيه الداخل دوراً ملحوظاً في تغيير يفضي الى تطوير حياة سياسية، سيدة وديموقراطية، لا تصير هكذا من دون الإسـهام الطليعي للشيعة.

حازم صاغيّة

الحياة، ٢٣ نيسان ٢٠٠٥